والزجاج الاخضر وعليهِ كتابة يقال فيها ان الملك منعمُ لامهِ والجثة ملفوفة بصفائح الذهب كلها من رأسها الى قدميها ولكن المياه دخلت من بين الصفائح واتلفتها وحولتها الى مادة كالفحم وقد كان على ذراعيها اساور وحول عنقها عقد حبوبهُ من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة وعلى رأسها تاج ملكات مصر وهو بديع الصنع يمثل الصقر الملكي وقد مسك خاتمين بقدميهِ وبسط جناحيهِ على رأس الملكة وضمَّ جناحاهُ من الوراء بدبوس . والصقر كلهُ من الذهب الابريز

ووجد قرب الجثة بقايا صندوق فيهِ مصنوعات من الخزف المدهون تمثل ادوات الزينة التي كانت الملكة تستعملها وكاس من الخماهان[1] عليهِ اسم اخن اتن وقد محيَ عنهُ . وابدع ما وجد هناك من باب فني صورة رأس الملكة في الالبستر المصري الذي تغطى بهِ الحقق الاربع التي توضع في القبر عادةً وقد صنعت حدقتاها وحاجباها من اللازورد والسج[2] . والصورة تدلُّ على ان هذهِ الملكة كانت ذات سيادة ومهابة وانفها دقيق انفي يدلُّ دلالة واضحة على انها غير مصريَّة . ووجدت في القبر اشياء اخرى صغيرة وبينها صفيحة كتب فيها انها تذكار للملك اخن اتن المتوفى فاوقعت العلماء في حيرة لان اخن اتن مات بعد امهِ

المدارس والتعليم

اصبحت مسألة التعليم من اهم المسائل الاجتماعية وقد اتجهت اليها الانظار في هذا القطر كما اتجهت في سائر الاقطار . وهي من اقدم المسائل طرقها المصريون القدماء لما استأثر كهانهم بالعلوم المعروفة لعهدهم ولم يشركوا عامَّة الشعب فيها وكانوا يمنُّون على الملوك ان هم اطلعوهم على اسرارها . وخاض فيها اليونان لما ميَّزوا المتعلمين منهم على غيرهم فناق عظماؤهم وفلاسفتهم ابناء نوعهم حتى كأنهم من جبلَّة مخصوصة وخضعت العقول لعلومهم وفنونهم في العصور الغابرة ولم تزل خاضعةً لها الى الآن حتى ان العرب على ما بهم من النعرة القومية والانفة الدينيَّة لم يأنفوا من تلقيب ارسطوطاليس بالمعلم الاكبر وتلمذتهم وابنع ثم اخطَّ وتضعضعت احوالهُ وهم مسحورون بعلوم اليونان وفلسفتهم

الَّا ان التعليم بالمعنى الحقيقي الذي نفهمهُ الآن لم ينظر فيهِ الَّا منذ عهد قريب حين رأى الباحثون انهُ لا بد من معرفة النواميس الفسيولوجيَّة التي يتمو الدماغ بموجبها والمؤثرات الخارجيَّة التي تؤثر فيهِ والمعارف اللازمة لما يقصد الانسان ان يتعاطاهُ من الاعمال

(١) تجر الدم (٢) تجر مسود كالزجاج الاسود

وقد اطلعنا الآن على خطبة للاستاذ وليور جاكمن الاميركي القاها في مؤتمر التعليم الذي عقد في مدينة بوستن في آخر شهر نوفمبر الماضي رأينا انها حاوية لفوائد كثيرة في هذا الموضوع فاقتطفنا منها اكثر الفقرات التالية . قال الخطيب

جاء في خبر الخليقة ان الله جبل الانسان من تراب الارض ونفخ في انفه نسمة حياة فصار ذا نفس حية . ولقد حسب الناس ان التعليم يجري على هذا النمط اي ان المعلم ينفث العلم في انف التلميذ او يصبه في عقله صباً وبقي هذا معتقدهم الى القرن الماضي ثم تغير رويداً رويداً كما تغير معتقدهم في اصل الانسان وهم يقولون الآن ان العلم ينمو في النفس نمواً بفعل المؤثرات الخارجية ولا يصب فيها صباً كما يصب الماء في الاناء وان للمدارس الشأن الاول في اصلاح الهيئة الاجتماعية اذا أُحسن تنظيمها

والذي يعتقده اكثر الناس حتى الآن ان المدرسة سجن يسجن فيه التلميذ او حظيرة يوضع فيها لكي يفرغ العلم في قلبه ولا ينظر اليه فيها كجزء من الهيئة الاجتماعية بل كفرد مستقل او كواحد من فرقة كبيرة او صغيرة فيقسم تلامذة المدرسة الى ثلاث فرق او اربع او خمس او اكثر او اقل وتلقى الدروس على الفرقة منهم كأن كل واحد منهم مثل الآخر في قوى عقله وتنوع مداركه ولكنه مستقل عنه تمام الاستقلال يعمل وحده لنفسه او لارضاء المعلم . والمعلمون والنظار يبذلون اقصى جهدهم في استنباط الوسائل التي تمنع ائتلاف التلامذة بعضهم مع بعض ومساعدة بعضهم بعضاً لئلا يفضي ائتلافهم الى تعصبهم وعصبياتهم كأن المعلمين والنظار يجرون على القاعدة القائلة فرّق تسُد وغرضهم الاول السيادة والاخير على التلامذة مع ان غرض الامة ان يعاون افرادها بعضهم بعضاً . والتعاون ممدوح في كل مكان على ما يظهر الاّ في المدرسة وفي السجن كأن المعلم والسجان من قبيل واحد وطينة واحدة . وهذا مما يؤسف عليه جداً لان التعاون خير صفة ادبية ارتقى اليها نوع الانسان ويجب ان تكون المدرسة مهده الذي يشأ فيه ويربى وهو حجر الزاوية الذي رفضه البناؤون حتى الآن لانهُ (اي التعاون) اهم ما تمس الحاجة اليه لارتقاء نوع الانسان . ولا عبرة بما ينشأ عن التعاون احياناً من الثورات المدرسية كما حدث في المدرسة الكلية الاميركية في بيروت لما ثار تلامذة الطب فيها منذ نحو اربع وعشرين سنة وكما حدث في مدرسة الحقوق والمدرسة الزراعية في القطر المصري في العام الماضي وكما يحدث في مدارس روسيا الآن لان الثورة نفسها توجه عقول التلامذة الى غرض معلوم وتقويهم في متابعة ذلك الغرض فتظهر قواهم الكامنة فيهم ولا يعترض على ثورتهم الاّ اذا كانت لغرض غير حميد او لغرض اخطأوا في حسابه

صوابًا وهو غير صواب اما اذا كان الغرض حميدًا فلا ضرر من الثورة بل منها النفع الاعظم. ولا شيء يبث الحياة في نفوس التلامذة مثل تعصبهم لغرض حميد وتعاونهم عليهِ كأنهم يأتمرون بالآية القائلة وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على المنكر

ولا تخلو المدارس من التعاون مهما حاول معلموها واساتذتها منعهم عنهُ فان انقسامهم في ساحة اللعب الى فرق واحتيالهم على معاكسة المعلمين وتحزبهم في جمعياتهم العلمية والادبيَّة كل ذلك يبث الحياة في معيشتهم المدرسية ويزيل السآمة منها والضجر ولولاهُ لمارها وامسى الدرس التعب الاشقال لكن المعلمين لا يرضون عن ذلك لانهم يحسبونهُ مخالفًا لنظام المدرسة وفاتهم ان المدرسة جزء من الدنيا والتلامذة جماعة من الناس ويجب ان يظهر فيهم مبدأ التعاون كما يظهر في غيرهم من ابناء نوعهم فاذا لم يجد لهُ غرضًا حميدًا يتجه اليهِ فلا بعد ان يتجه الى غرض غير حميد فعلى المعلمين ان يوجهوا هذا الميل الى الاغراض الحميدة ويستخدموهُ لتقوية الملكات الحسنة في النفوس . ويجب ان يبتدئ ذلك في الكتاتيب الصغيرة حين يكون الولد طفلاً لان الاطفال ميَّالون الى العمل والتعاون عليهِ من تلقاء انفسهم مثل الكبار ولا يحجم الطفل عن العمل الاَّ اذا كان مريضًا او خاملاً

قال الاستاذ جاكمن جاء في تلميذ ذات يوم وقال ان معلمهُ يقول انهُ كسلان فلا يريد بقاءهُ في المدرسة . فقلت لهُ وانت ماذا تقول لو تركنا الامر لك فقال " اني اترك المدرسة وامضي واعمل عملاً ما " . فشكرتهُ في قلبي لاني رأيت في كلامهِ انتقادًا لنظام المدرسة وقع في محلهِ . والعمل الذي طلبهُ ذلك الولد كان يجب ان يكون في المدرسة وقد يجدهُ خارجًا عنها ولكن الغالب انهُ لا يجدهُ بل يجد عملاً آخر لا تميل اليهِ نفسهُ ويدخل في خدمة رجل يستخدمهُ استخدام العبد ليتمتع بقواهُ من غير ان ينميها او يتركها حرَّةً لتنمو نموها الطبيعي . وكأنَّ كل التلامذة اسلوب استنبطتهُ الطبيعة لانقاذ الاولاد من سخافة المدارس واماتتها لقوى النفس والجسد

ومن اغرب ما يذكر في تاريخ المدارس انها جعلت العمل قصاصًا لتكمل حتى تغرس كراهة العمل في النفوس بدلاً من ان تجعلهُ جائزة للاجتهاد فتغري التلامذة بهِ وتشوقهم اليهِ . ولكن يجيء الامر على احسن مما تريد لان التلامذة يتركون المدارس رويدًا رويدًا ويعودون الى العمل ولا يبلغ منهم الدرجات العليا في المدارس العليا الاَّ نفر قليل جدًّا كأن العلم والعمل يتجاذبان الانسان من سن الطفولة الى سن الشباب والفوز للعمل لا للعلم ولا غرابة في ذلك لان العمل هو المعلم الحقيقي للعالم

من يمعن نظرهُ في المدارس عمومًا واحوال تلامذتها يجد ان التلامذة قادرون على ان يعملوا اعمالاً مفيدة وهم يتمنون عليهم وانهم شديدو الميل الى ذلك والرغبة فيهِ . وهذا ليس بالامر الوحيد الذي يجب الانتباه لهُ بل يجب الانتباه ايضًا لامرٍ آخر اهم منهُ وألزم وهو ان العلم والعمل يجب ان لا يكونا فرضًا واجبًا على التلميذ بل ان يكونا مما يميل اليهِ ويرغب فيهِ من تلقاء نفسهِ والاَّ فلا فائدة منهما . فالذين يحسبونهما فرضًا واجبًا يحسبون عقل التلميذ اناءً يصبُّ العلم فيهِ والعمل قيدًا تقيَّدُ بداهُ بهِ فلا العقل يستفيد من العلم ولا اليد تتقن العمل بل يبقى التلميذ في الحالين مقلِّدًا لا مبتكرًا . واذا راجعت لوائح المدارس ونظرت في كيفية القاء الدروس وتمرين التلامذة فيها تجد ان المراد منها تقوية ملكة التقليد واماتة ملكة الابتكار فاذا خالف التلميذ الخطة المقرَّرة لهُ عدَّت مخالفتهُ خطأً كبيرًا حتى ان علماء الانشاء لا يجيزون مخالفة القواعد التي جرت عليها أئمة اللغة منذ الف سنة مع ان الاسلوب الذي جرى عليهِ اولئك الائمة حتى صاروا أئمةً هو اسلوب الابتكار ولو قلَّدوا من قبلهم ما صاروا ائمة

وقوة الابتكار موجودة في كل الاولاد ذكورًا واناثًا ولذلك تراهم يميلون اليها من صغرهم . تشتري لعبةً لابنك بريال او ريالين فلا تسرُّ بها اكثر مما تسرُّ بلعبة تصنعها هي من الطرق البالية . وتشتري لعبة لابنك فلا يسرُّ بها اكثر مما يسرُّ بلعبة يصنعها بيديه لان قوة الابتكار موجودة في نفس الطفل واليها يميل بالطبع والتقليد يمجها ولذلك اذا اوقفتهُ امامك وحاولت تعليمهُ حروف الهجاء او غيرها وطلبت منهُ ان يقلدها يملُّ من التقليد حالاً لانهُ على خلاف طبعهِ ولا يصدق ان ينتهي وقت الدرس حتى يخرج من بين يديك ويعود الى الغايو يحفر الآبار في التراب ويبني البيوت بالرمل ويركب خيلاً من العصي وهذا الابتكار هو الذي يكوِّن الانسان وبهِ يحيا ويقوى ويمتاز عن غيرهِ

والمحك الذي تعرف فيهِ فائدة التعليم ومزيتهُ هو شعور التلميذ بفائدتهِ وبانهُ مطابق لميل في نفسهِ فاذا لم توجِّه قواهُ دائمًا الى غرض معلوم ذهبت وسائل التعليم سدًى كالآلة التي تدور على الفارغ من غير ان تعمل عملاً . ويحق لكل معلم ان ينتظر من تلامذتهِ انهم كلهم يلبُّون طلبهُ اذا طلب منهم شيئًا يفهمونهُ ويشعرون بالحاجة اليهِ

واذا اريد الجري على رغبة التلامذة ومزج العلم بالعمل فالغالب ان آباءهم لا يرضون بذلك بل يقولون ان المدرسة للعلم لا للعمل وان اولادهم يستطيعون العمل في بيوتهم اذا ارادوا ذلك . آباء مثل هؤلاء يريدون ان يخرج اولادهم من المدرسة محدودبي الظهر مصفري

الوجه قصيري البصر . ولا يخفى ان التلامذة يدرسون بعض العلوم في المدارس الصناعية لكي تساعدهم على العمل فيجب ان يعملوا بعض الاعمال في المدارس العملية لكي تساعدهم على العلم

يظهر مما تقدَّم ان في التلامذة استعداداً طبيعياً يستطيع المعلم ان يستخدمهُ لما يبتغي عليهِ من ارتقاء الوطن وهذا الاستعداد يظهر باربعة اوجه الوجه الاول الميل الطبيعي الى التعاون والثاني الهبة الفطرية للعمل والثالث الرغبة الشديدة في الابتكار والرابع الاهتمام الصحيح بالمطالب الوطنية . فيجب ان تكون دروس المدرسة واشغالها مبنية لهذه الصفات مرقية لها على اسلوب صحيح اي يجب ان تكون الدروس آيلة الى ما منهُ النفع العام وان يكون نظام المدرسة كلهُ مما يُطلق الحريَّة التامَّة لكل من يفتكر ويعمل في الخطة الحسنة . وما من احد ينكر ان الصفات المتقدمة تكفي من يتَّصف بها للنجاح في اعمال الحياة المختلفة فلماذا لا تكفي للنجاح في المدارس هل لتغيُّر نواميس الكون بدخول المدرسة ولماذا لا يصدق على المدارس ما يصدق على غيرها حتى يوضع لها نظام خاص يختلف عن النظام المتبع في سائر الاعمال

اذا اراد صنَّاع المركبات ان يعملوا مركبة لقاعتهم عملها وصنعوها بحيث يجتمع فيها كل ما يمكن من الاقتصاد والمنفعة فلا يضعون فيها خشباً اكثر مما يلزم ولا حديداً اكثر مما يلزم بل القدر الكافي منهما والاَّ خسر العمل وجاءت المركبة على غير المراد اما في المدرسة فاذا أُريد تعليم علم اهتمَّ استاذهُ او اساتذتهُ بجعل موادهِ فوق طاقة التلميذ وعندهم ان التفوُّق يكون بزيادة الشروح والفصول لا بالاقتصار على الكافي منها كان صانع المركبة يصنع عشرين عجلة وهو لا يحتاج الاَّ الى اربع ومئة قطعة من الحديد وهو انما يحتاج الى عشرين . ولا يقف هذا الخلل عند ذلك بل يتبارى بعض الاساتذة في جعل العلوم التي يعلمونها تشغل الجانب الاكبر من وقت التلميذ واهتمامهِ

وهناك خلل آخر في نظام المدارس وهو ان تقسيم الفرق فيها يتطرق فيهِ الى المماثلة بين المراد الفرقة الواحدة في السن والعلم والخلق فلا يبقى مجال ليعاون التلامذة بعضهم بعضاً لانهم يكونون متساوين في معارفهم فيصير كلٌّ منهم يسعى لنفسهِ وهذا على غير ما يجري عليهِ الناس في اعمالهم ومعاملاتهم فلو اقتسموا هذا الاقتسام واقام الرجال وحدهم والاولاد وحدهم والنساء وحدهن واقترقت طبقات الرجال والنساء والاولاد حسب السن وانفصلت بعضها عن بعض لخرب نظام الامم

وقس على ذلك تلامذة المدارس فان صغارهم يتعلمون من كبارهم وكبارهم يعلِّمون صغارهم اذا تركوا لشأنهم من غير ان يفصلوا بعضهم عن بعض والتلميذ يستفيد من تلميذ آخر اكبر

منهُ اكثر مما يستفيد من استاذهِ والتلميذ الكبير يستفيد من تعليم الصغير وعما يشعر بهِ من الاهتمام بتعليم غيرهِ

وقس على ذلك تقسيم التلامذة حسب درجات معارفهم او مهارتهم فانهُ لو استعمل خارج المدرسة نعدٌ من ضروب الحماقة . ما تولك في رجل يريد ان يبني بيتاً فيقسم العمال الى ثلاثة اقسام يضع البنائين وحدهم والنجارين وحدهم وحاملي الطين وحدهم ولا يشرك فريقاً منهم مع الفريق الآخر فان البيت لا يبنى ابد الدهر

اضف الى تقسيم التلامذة في المدارس الابتدائية وضع العلامات لهم وامتحانهم الامتحان الرسمي وما ينجم عن ذلك من الخداع والايثار فيخرج الولد منها خداعاً مؤثراً لنفسهِ غير مهتم بامر غيرهِ

لذلك يجب ان ينظر في تقسيم التلامذة الى جعلهم مساعدين بعضهم لبعض كأنهم يعدّون انهم اعضاء جسم واحد وعلى كل واحد منهم ان يسعى في مصلحة الجسم كلهِ او انهم عاملون في بناء واحد

ولا يتمّ نظام المدارس على هذا الاسلوب الاّ بعد ان يتعلم المعلمون مطالب الامة وما تحتاج اليهِ لنموها وارتقائها كما يتعلمون فسيولوجية الدماغ وفلسفة القوى العقلية وكيفية تثقيفها فيسيروا على هدًى في ترقية عقول التلامذة وتعليمهم العلوم التي يحتاجون اليها كأعضاء عاملين لخير الامة على الاسلوب الذي يرسخ العلم في النفس ويمكّن منها ملكة التفاوت وحب الخير العام

هذا وان من ينظر نظرة عامة في تاريخ الرجال الذين اشتهروا بالعلم وافادوا وطنهم يجد ان كثيرين منهم لم يقتصروا على ما تعلموهُ في المدارس بل تعلموا كثيراً فوقهُ خارج المدرسة وانهم كلهم كانوا يعملون في طلب العلم ويطبقونهُ على العمل ويجرون فيهِ على مقتضيهِ حاجة البلاد كارهين التقليد ميّالين الى الابتكار ولو خالف المألوف . ويجد ايضاً ان اكثر الذين فاقوا غيرهم في حفظ الدروس حسب رغبة الاساتذة نالوا اكثر العلامات في الامتحانات اليومية والسنوية ولم يقرنوا العلم بالعمل لم ينتفعوا بعلمهم ولا نفعوا بهِ وطنهم . وان التلامذة الذين يساعدون اخوانهم في دروسهم يستفيدون اكثر من غيرهم . وانهُ لا يرسخ في الذهن من علوم المدارس كلها الاّ ما يستعمل منها وما بقي يذهب ضياعاً يضيع بهِ جهد الاستاذ وجهد التلميذ وتذهب فيهِ قوّة عقلية كان يمكن ان تستخدم في ما ينفع صاحبها ووطنهُ ولذلك لا يستغرب قول من قال ان التعليم قد يفضي الى البله والحماقة . فعلى الامة التي تطالب تعميم التعليم في بلادها ان تطلب اولاً اصلاحهُ حتى يكون منهُ النفع الاكبر والاّ فمنهُ ضرر كبير